الفصل الثالث عشر

الفتح المبين (صلح الحديبية)

المبحث الأول

تاريخه وأسبابه ومخرج رسول الله ﷺ إلى مكة

أولاً: تاريخه وأسبابه:

في يوم الاثنين من ذي القعدة سنة ٦ هـ [١]، خرج الرسول ﷺ من المدينة متوجهاً بأصحابه إلى مكة لأداء العمرة [٢]. وسبب هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ رأى رؤيا في منامه ـ وهو في المدينة ـ وتتلخص هذه الرؤيا أن النبي ﷺ رأى أنه قد دخل مكة مع أصحابه المسلمين محرماً مؤدياً للعمرة، وقد ساق الهدى معظماً للبيت مقدساً له، فبشر النبي ﷺ أصحابه ففرحوا بها [٣] فرحاً عظيماً، فقد طال عهدهم بمكة والكعبة التي رضعوا بلبان حبها ودانوا بتعظيمها، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطاً بها وشوقاً إليها، وقد تاقت نفوسهم إلى الطواف حولها، وتطلعت إليها تطلعاً شديداً، وكان المهاجرون أشدهم حنيناً إلى مكة، فقد ولدوا ونشأوا فيها وأحبوها حباً شديداً، وقد حيل بينهم وبينها، فلما أخبرهم رسول الله ﷺ بذلك تهيأوا لتلك الزيارة العظيمة [٤]، واستنفر ﷺ أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه، لأنه كان يخشى أن تصده قريش عن البيت الحرام، وكانت استخبارات المدينة قد علمت بأمر التحالف العسكري الذي عقد بين قريش في جنوب المدينة المنورة وخيبر في شمالها، وكان هدف هذا التحالف جعل الدولة الإسلامية بين طرفي الكماشة، ثم إطباق فكيها عليها وإنهاء الوجود الإسلامي فيها، فقد حان الوقت لكسر ذلك التحالف سياسياً، فقد كانت الكعبة في نظر العرب قاطبة ليست ملكاً لقريش، بل هي تراث أبيهم إسماعيل، ولهذا فليس من حق قريش أن تمنع من زيارتها من تشاء وتجيز من تشاء، فإذن من حق محمد وأصحابه زيارة الكعبة [٥].

---

(١) أجمع أهل العلم على تاريخها بدون خلاف. انظر: المجموع للنووي (٧/ ٧٨).

(٢) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٣٤).

(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٩٥).

(٤) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٢٧٣).

(٥) قراءة سياسية للسيرة النبوية، (ص ٢١٣، ٢١٤).

obeikandl.com

وانتشر خبر خروج رسول الله ﷺ بين قبائل العرب، وكان انتشار الخبر له أثر في الرأي العام، وخصوصاً بعدما أكد رسول الله ﷺ بأنه لا يريد حرباً وإنما يريد أن يعتمر ويعظم شعائر الله، وحقق هذا الفعل الكريم مكاسب إعلامية رفيعة المستوى، وقد كان هدف النبي ﷺ معلناً ألا وهو زيارة بيت الله الحرام لأداء العمرة، فتجرد هو وأصحابه من المخيط، ولبسوا ثياب الإحرام وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة بعد أن قلد الهدي وأشعره [١].

وقد كان ﷺ على جانب كبير من الحيطة والحذر، فقد أرسل بشر بن سفيان الخزاعي عيناً له [٢]، وقدم بين يديه طليعة استكشافية مكوّنة من عشرين رجلاً وفي ذلك يقول الواقدي: (دعا رسول الله ﷺ عبّاد بن بشر فقدمه أمامه طليعة في خيل المسلمين عشرين فارساً وكان فيها رجال من المهاجرين والأنصار) [٣] وكان هدفه ﷺ من ذلك الاستعداد للطوارىء التي يمكن أن يفاجأ بها ـ وأيضاً ـ فقد كانت مهمة هذه الطليعة استكشاف خبر العدو [٤].

وأخذ ﷺ بمشورة عمر في ذي الحليفة عندما قال له: يا رسول الله تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كراع؟ فبعث النبي ﷺ إلى المدينة من يحمل له الكراع والسلاح [٥]، وكان قصده ﷺ من ذلك: الاستعداد لهؤلاء الأعداء، الذين يملكون السلاح والعتاد ما يستطيعون به إلحاق الأذى بالمسلمين والنيل منهم [٦]، وهذا التعامل مع سنّة الأخذ بالأسباب من هديه الكريم الذي جعله لأمته لتقتدي به من بعده ﷺ، لما في ذلك من المصالح الكثيرة، ولما فيه من درء مكايد الأعداء الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر [٧].

ثانياً: وصول النبي ﷺ بعسفان:

لمَّا وصل رسول الله ﷺ بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي الخزاعي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك ومعها العوذ المطافيل [٨]، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوةً أبداً، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح [٩] قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في

---

(١) أشعره: إشعار البدن أو يشق أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل دمها، مرويات الحديبية، (ص ٥٥).
(٢) انظر: مرويات غزوة الحديبية للحكمي، (ص ٥٨، ٥٩).
(٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٩٧٤).
(٤) انظر: صلح الحديبية، محمد باشميل، (ص ٣٠٩).
(٥) تاريخ الطبري (٢/ ٦٢٢).
(٦) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، (ص ٤٨٩).
(٧) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص ٢٨٩).
(٨) المراد: خرجوا ومعهم النساء والأولاد لئلا يفروا عنهم وهو على الاستعارة.
(٩) يا ويح: كلمة ترحم وتوجع، انظر: لسان العرب (٣/ ٩٩٦).

الإسلام وهم وافرون [١]، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهر الله له أو تنفرد هذه السالفة» [٢].

وقد استشار ﷺ أصحابه لما بلغه خبر استعداد قريش لصده عن دخول البيت الحرام، وعرض ﷺ على الصحابة ﷺ المشورة في هذا الأمر على رأيين يحملان العزم والتصميم:

١ ـ الميل إلى عيال وذراري الأحابيش الذين خرجوا لمعاونة قريش على مقاتلة المسلمين وصدهم عن البيت.

٢ ـ قصد البيت الحرام، فمن صدّه عنه قاتله حتى يتمكن من تحقيق هدفه [٣].

ولمَّا عرض ﷺ المشورة في هذا الأمر على الصحابة تقدم أبو بكر الصديق برأيه الذي تدعمه الحجة الواضحة، حيث أشار على رسول الله ﷺ بترك قتالهم والاستمرار على ما خرج له من أداء العمرة حتى يكون بدء القتال منهم، فاستحسن النبي ﷺ هذا الرأي وأخذ به، وأمر الناس أن يمضوا في هذا السبيل [٤]، وعندما اقتربت خيل المشركين من المسلمين صلَّى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الخوف بعسفان.

ثالثاً: الرسول ﷺ يغيِّر الطريق وينزل بالحديبية:

ولمَّا بلغ رسول الله ﷺ أن قريشاً قد خرجت تعترض طريقه، وتنصب كميناً له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد، وهو لم يقرر المصادمة، رأى أن يغيِّر طريق الجيش الإسلامي تفادياً للصراع مع المشركين فقال: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟» فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب شق على المسلمين السير فيه حتى خرجوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، وعند ذلك قال رسول الله ﷺ للناس: «قولوا نستغفر الله ونتوب إليه»، فقالوا ذلك.

فقال: «والله إنها الحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها» [٥].

فأمر رسول الله ﷺ الناس أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمش في طريق تخرجه إلى ثنية المرار، مهبط الحديبية من أسفل مكة، فسلك الجيش ذلك الطريق بخفة ودون أن يشعر به أحد، فما نظر خالد إلا وقترة [٦] جيش المسلمين قد ثارت، فعاد مسرعاً هو ومن معه إلى مكة

---

(١) وافرون: جمع وافر هو الذي لم ينقص منه شيء، لسان العرب (٣/٩٥٨).
(٢) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٣٧) رقم (٢٧٣٢).
(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، (ص ٤٨٩).
(٤) انظر: ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية للشيخ عدنان النحوي، (ص ١٦٠).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٣٨).
(٦) قترة: غبار.

يحذّر أهلها ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجيء [١]، وقد أصاب الذعر المشركين وفوجئوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية حيث تعرضت مكة للخطر وأصبحت مهددة من المسلمين تهديداً مباشراً [٢]، يقول اللواء محمود شيت في هذا الدرس الرائع: لم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفاً من قوات الجيش، فالذي يخاف من عدوه لا يقترب من قاعدته [٣] الأصلية، وهي مركز قواته، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية حتى يُطيل خط مواصلات العدو، وبذلك يزيد من صعوباته ومشاكله ويجعل فرصة النصر أمامه أقل من حالة الاقتراب من قاعدته الأصلية [٤].

وقد جاء في كتاب اقتباس النظام العسكري في عهد الرسول ﷺ، ما يُبين الحكمة من تغيير الطرق ما نصه: ويؤخذ من اتخاذ الأدلة والتحول إلى الطرق الآمنة أن القيادة الواعية البصيرة، تسلك في سيرها بالجيش طرقاً بعيدة عن المخاطر والمهالك، وتتجنب الدروب التي تجعل الجيش خاضعاً تحت تصرفات العدو وهجماته [٥].

رابعاً: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»:

وعندما اقترب الرسول ﷺ من الحديبية بركت ناقته القصواء، فقال الصحابة ﷺ: خلأت القصواء [٦]، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» [٧]، ثم زجرها فوثبت، ثم عدل عن دخول مكة وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد - بئر - قليل الماء ما لبثوا أن نزحوه ثم اشتكوا إلى رسول الله العطش، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فجاش لهم بالري فارتووا جميعاً [٨]، وفي رواية أنه جلس على شفة البئر فدعا بماء فمضمض ومج في البئر [٩]، ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معاً وقعا، كما ذكر ابن حجر [١٠] ويؤيده ما ذكره الواقدي [١١]، وعروة [١٢]، من أن الرسول ﷺ تمضمض في دلو

---

(١) غزوة الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٩).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، (ص ٣٧٤).
(٣) المصدر نفسه، (ص ٣٧٤).
(٤) انظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، (ص ١٨٦ - ١٨٧).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، (ص ٣٧٤) نقلاً عن اقتباس النظم العسكرية، (ص ٢٥٨).
(٦) بركت من غير علة ظاهرة، فلم تبرح مكانها.
(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٨٤).
(٨) المصدر نفسه، (ص ٤٨٤).
(٩) الفتح (١٤/ ٧٥٨) رقم (٣٥٧٧).
(١٠) الفتح (١١/ ١٦٤) رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(١١) المغازي (٢/ ٥٨٨).
(١٢) من رواية أبي الأسود عنه كما ذكر ابن حجر في الفتح (١١/ ١٦٤).

وصبه في البئر ونزع سهماً من كنانته فألقاه فيها ودعا ففارت [١]. وفي بروك ناقة رسول الله ﷺ وقسمه بعد ذلك دروس وعِبَر منها:

١ ـ كل شيء في هذا الكون يسير بأمر الله ومشيئته، ولا يخرج في سيره عن مشيئته وإرادته، فتأمل في ناقة رسول الله ﷺ أين بركت، وكيف كره الصحابة بروكها وحاولوا إنهاضها لتستمر في سيرها، فيستمروا في سيرهم إلى البيت العتيق مهما كانت النتائج، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد غير ذلك [٢].

٢ ـ وقد استنبط ابن حجر العسقلاني ح فائدة جليلة من قوله ﷺ: «حبسها حابس الفيل» [٣]. فقال: وفي هذه القصة جواز التشبيه من الجهة العامة، وإن اختلفت الجهة الخاصة، لأن أصحاب الفيل كانوا على باطل محض، وأصحاب هذه الناقة كانوا على حق محض، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة الله منع الحرم مطلقاً، أما من أهل الباطل فواضح، وأما من أهل الحق فللمعنى الذي تقدم ذكره [٤].

٣ ـ ومن الفوائد أن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبغاة والظلمة، إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى، أجيبوا إليه وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس المعاونة على محبوب للّه تعالى مُرْضٍ له، أجيب إلى ذلك كائناً من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوضٌ للّه أعظم منه، وهذا من أدق المواضيع وأصعبها، وأشقها على النفوس [٥].

٤ ـ إن الله سبحانه وتعالى جلّت قدرته وعزّت عظمته، قضى ألا يكون قتال بين المسلمين والمشركين من أهل مكة في هذه الغزوة بالذات؛ لحكم ظهرت فيما بعد منها:

أ ـ دخول المسلمين بالقوة يعني أن تحدث مذابح، وتزهق أرواح كثيرة، وتسفك دماء غزيرة من الطرفين، وهذا أمر لم يرده البارىء سبحانه، وكان لمصلحة الفريقين المؤمنين والمشركين.

ب ـ إن من المحتمل أن ينال الأذى والقتل والتشريد على أيدي المؤمنين بعض المستضعفين من إخوانهم المسلمين في مكة، وهذا فيه ما فيه من المعرة التي لا يليق بمسلم أن يقع فيها، قال سبحانه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٨٤).
(٢) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٤٣).
(٣) انظر: فتح الباري ابن حجر (٦/ ٢٦٠).
(٤) فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٦١).
(٥) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٤٧).

﴿ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

جـ ـ لقد سبق في علم الله ﷻ أن هؤلاء الذي يقفون اليوم صادين رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم عن المسجد الحرام، هم الذين سيفتح الله قلوبهم إلى الإسلام، وسيفتح الله على أيديهم بلاداً كثيرة، حين يحملون هذه الرسالة للناس، وينيرون ظلمة الطريق للمدلجين [١].

خامساً: السفارة بين الرسول ﷺ وقريش:

بذل رسول الله ﷺ ما في وسعه لإفهام قريش أنه لا يريد حرباً معهم، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه وهو حق للمسلمين، كما هو حق لغيرهم، وعندما تأكدت قريش من ذلك أرسلت إليه من يفاوضه ويتعرف على قوة المسلمين ومدى عزمهم على القتال إذا أُلجئوا إليه، وطمعاً في صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية من جهة ثالثة [٢].

١ ـ ركب من خزاعة بقيادة بُدَيْل بن ورقاء:

جاء بُديل بن وَرْقَاء في رجال من خزاعة، وكانت خزاعة عَيْبة [٣] نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، وبينوا أن قريشاً تعتزم صد المسلمين عن دخول مكة، فأوضح لهم الرسول ﷺ سبب مجيئه وذكر لهم الضرر الذي وقع على قريش من استمرار الحرب، واقترح عليهم أن تكون بينهم هدنة إلى وقت معلوم حتى يتضح لهم الأمر، وإن أبوا فلا مناص من الحرب ولو كان في ذلك هلاكه، فنقلوا ذلك إلى قريش، وقالوا لهم: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً هذا البيت، فاتهموهم وخاطبوهم بما يكرهون، وقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فلا والله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تتحدث بذلك العرب [٤]. وقد ظهرت براعة النبي ﷺ السياسية في عرضه على مشركي مكة الهدنة والصلح لأن في ذلك فوائد كثيرة منها:

أ ـ فبالهدنة يضمن حياد قريش ويعزلها عن أي صراع يحدث في الجزيرة العربية، سواء كان هذا الصراع مع القبائل العربية الأخرى، أم مع اليهود ذلك العدو اللئيم الغادر الذي يتربص بالمسلمين الدوائر.

---

(١) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٤٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٨٥).
(٣) أي خاصته وأصحاب سره.
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٠).

ب ـ حرص الرسول ﷺ على أن يبقى باب الاتصال مفتوحاً بينه وبين قريش ليسمع منهم ويسمعوا منه بواسطة الرسل والسفراء، وفي هذا تقريب للنفوس وتبريد لجو الحرب، وإضعاف لحماسهم نحو القتال.

جـ ـ حرص ﷺ على أن تدرك خزاعة بقيادة بُديل والركب الذي معه، أن حليفهم قوي، فتزداد ثقتهم به وحلفهم له ولبني هاشم من قبل الإسلام، فقد بقي ولم يُلْغَ، وتأكد في صلح الحديبية.

د ـ إن العقلاء الذين يفكرون بعقولهم حين يسمعون كلام الرسول ﷺ وأنه جاء معظماً للبيت والمشركون يردونه، وهو يصر على تعظيمه، وسيقف هؤلاء بجانبه ويتعاطفون معه فيقوى مركزه، ويضعف مركز قريش الإعلامي والديني في نفوس الناس.

هـ ـ إن مشركي مكة لم يطمئنوا إلى كلام بُديل الذي نقله إليهم، ذلك لأنهم يعلمون أن خزاعة كانت عيبة نصح لرسول الله ﷺ ويشعرون بود خزاعة للرسول والمسلمين [١].

و ـ ويؤخذ من جواب رسول الله ﷺ لبُديل بن ورقاء حسن التلطف في الوصول إلى الطاعات، وإن كانت غير واجبة، ما لم يكن ذلك ممنوعاً شرعاً، لأن النبي ﷺ أجاب المشركين لما طلبوا منه، ولم يظهر لهم ما في النفوس من البغض لهم والكراهية فيهم لطفاً منه عليه السلام، فيما يؤمل من البلوغ إلى الطاعة التي خرج إليها [٢].

٢ ـ سفارة عروة بن مسعود الثقفي:

لم تقبل قريش ما نقله بُديل بن ورقاء الخزاعي عن رسول الله ﷺ أنه جاء زائراً للبيت ولم يأت مقاتلاً، واتهمتهم، بل أسمعتهم ما يكرهون، فاقترح عليهم عروة بن مسعود الثقفي أن يقابل الرسول ﷺ ويسمع منه، ثم يأتيهم بالخبر اليقين [٣] وقد ذكر ذلك البخاري في صحيحه فقال: فقام عروة بن مسعود فقال: أيْ قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ [٤]، فلما بلحوا [٥] عليَّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإنّ هذا قد عرض لكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آتيه، قالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل [٦]، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل

---

(١) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٦٧).
(٢) المصدر نفسه، (ص ٦٧).
(٣) المصدر نفسه، (ص ٦٨).
(٤) اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية في شمال الطائف يعقد كل عام.
(٥) بلحوا عليّ: أبوا، كأنهم أعيوا عن الخروج معه وإعانته.
(٦) البخاري، كتاب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٣٦) رقم (٢٧٣٢).

سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أوشاباً [١] من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص ببظر [٢] اللات، أنحن نفرُّ عنه وندعه [٣]؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

لقد حاول عروة بن مسعود أن يشن على المسلمين حرباً نفسية حتى يهزمهم معنوياً، فاستخدم عنصر الإشاعة، ويظهر ذلك عندما لوّح بقوة قريش العسكرية، معتمداً على المبالغة في تصوير الموقف بأنه سيؤول لصالح قريش لا محالة، وأن يوقع الفتنة والإرباك في صفوف المسلمين وذلك حينما حاول إضعاف الثقة بين القائد وجنوده عندما قال للنبي ﷺ: إني لأرى أوشاباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، حاول ذلك من أجل التأثير على نفسيات المسلمين ولخدمة أهداف قريش العسكرية والإعلامية، وحاول ـ أيضاً ـ أن يفتعل أزمة عسكرية كبيرة بين النبي ﷺ وجنوده من أجل التأثير على معنوياتهم وتحطيم عزائمهم، وهذا من أقوى أساليب الحرب النفسية التي استخدمت ضد المسلمين أثناء تلك المفاوضات وحاول عروة أن يثير الرعب وذلك بتخويف المسلمين من قوة قريش التي لا تقهر، وتصوير المعركة بأنها في غير صالحهم، لقد مارس عروة بن مسعود في مفاوضاته عناصر الحرب النفسية من إشاعة وافتعال الأزمات وإثارة الرعب [٤]. إلا أن تلك العناصر تحطمت أمام الإيمان العميق والتكوين الدقيق والصف الإسلامي المرصوص. ومن المفارقات الرائعة التي حصلت أثناء المفاوضات مع عروة بن مسعود وهي من عجائب الأحداث التي يستشف منها الدليل القاطع على قوة الإيمان التي كان يتمتع بها أصحاب النبي ﷺ، وعلى قدرة هذا الدين في تحويل الإنسان من شيطان مريد إلى إنسان فاضل نبيل، حيث كان أحد الذين يتولون حراسة النبي ﷺ أثناء محادثاته مع عروة بن مسعود الثقفي في الحديبية هو المغيرة بن شعبة [٥]، ابن أخ عروة بن مسعود نفسه، وكان المغيرة هذا قبل أن يهديه الله للإسلام شاباً فاتكاً سكيراً، قاطعاً للطريق، غير أن دخوله للإسلام حوّله إلى إنسان آخر، وقد أصبح بفضل الله تعالى من الصفوة المؤمنة، وقد وقع عليه الاختيار ليقوم بمهام حراسة النبي ﷺ في ذلك الجو الملبد بغيوم الحرب، وكان من عادة الجاهلية في المفاوضات، أن يمسك المفاوض بلحية الذي يراه نداً له أثناء الحديث، وعلى هذه القاعدة كان عروة بن مسعود يمسك بلحية رسول الله ﷺ أثناء المناقشة، الأمر الذي أغضب المغيرة بن شعبة، الذي كان قائماً على رسول الله ﷺ بالسيف يحرسه، وعلى وجهه المغفر، فانتهر عمه وقرع يده بقائم

---

(١) أوشابا: أي أخلاطاً من قبائل شتى.

(٢) البظر: ما تقطعه الخاتنة من بضع المرأة عند ختانها.

(٣) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٣٧) رقم (٢٧٣٢).

(٤) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية، سليم حجازي، (ص ١٣١، ١٣٢).

(٥) أسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها وشهد بيعة الرضوان، أصيبت عينه في اليرموك وكان رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم، الإصابة (٣/ ٤٥٢).

السيف قائلاً له: اكفف يدك عن مس لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك، وكان النبي ﷺ يتبسم للذي يجري بين عروة المشرك وبين ابن أخيه المؤمن، ولما أن المغيرة بن شعبة يقف بلباسه الحربي متوشحاً بسيفه ودرعه وعلى وجهه المغفر، فإن عمه عروة لم يكن باستطاعته معرفته، فقال للنبي ﷺ وهو في أشد الغضب: ليت شعري من أنت يا محمد من هذا الذي أرى من بين أصحابك؟ فقال له رسول الله ﷺ: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة»، فقال له عمه: وأنت بذلك يا غدر؟ لقد أورثتنا العداوة من ثقيف أبد الدهر، والله ما غسلت غدرتك إلا بالأمس. كان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء».

لقد فشل عروة في مفاوضاته ورجع محذراً قريش من أن تدخل في صراع مسلح مع النبي ﷺ وأصحابه، وقال لهم: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى، والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمد وأصحابه، والله ما يشدون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر فيفعل، وما يتنخم وما يبصق إلا وقعت في يدي رجل منهم يمسح بها جلده، وما يتوضأ إلا ازدحموا عليه أيهم يظفر منه بشيء، وقد حزرت القوم واعلموا أنكم إن أردتم السيف، بذلوه لكم، وقد رأيت قوماً ما يبالون ما يُصنعُ بهم، إذا منعوا صاحبهم، والله لقد رأيت نسياتُ معه، إن كنَّ ليسلمنه أبداً على حال، فرّوا رأيكم، وإياكم وإضجاع [١] الرأي فمادوه يا قوم، اقبلوا ما عرض فإني لكم ناصح مع أني أخاف ألا تنصروا عليه؛ رجل أتى هذا البيت معظماً له، معه الهدي، ينحره وينصرف! فقالت قريش: لا تكلم بهذا يا أبا يعفور [٢]، لو غيرك تكلم بهذا لَلُمناه ولكن نُردهُ عن البيت في عامنا هذا ويرجع قابل [٣].

لقد انتقلت الحرب النفسية وتأثيرها في صفوف المسلمين لتعمل داخل جبهة قريش وفي نفوسهم، فقد كان تصوير عروة لما رآه صادقاً، حيث بيَّن لقريش وضع المسلمين في الحديبية، من طاعتهم لنبيهم الكريم، وحبهم له، وتفانيهم بالدفاع عنه، وبما يتمتعون به من معنويات عالية جداً، واستعداد عسكري ونفسي يفوق الوصف، فكان ذلك بمثابة التحذير الفعلي لقريش بعدم التعجل والدخول في حرب مع النبي ﷺ وأصحابه، مما قد تكون نتائج هذه المعركة لصالح المسلمين، الأمر الذي أسقط في أيدي زعمائها، ولم تكن قريش تتوقعه أبداً في تقويمها للأمور، لقد كان وقع كل كلمة قالها سيد ثقيف كالصاعقة على مسامع نفوس زعماء قريش، لقد كان ﷺ موفقاً من قبل الله تعالى، ولذلك نجد أثره على عروة بن مسعود مما جعل الانشقاق يدب في

(١) إضجاع الرأي: أي الوهن في الرأي.
(٢) أبا يعفور: كنية عروة بن مسعود الثقفي.
(٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/٥٩٨).

معسكر قريش، وأخذت جبهة قريش تتداعى أمام قوة الحق الصامدة، وكذلك فقد انهارت حجة قريش في جمعها للعرب ضد النبي ﷺ.

لقد نجح النبي ﷺ بحكمته وذكائه نجاحاً عظيماً، باستخدام الأساليب الإعلامية والدبلوماسية المتعددة للحصول على الغاية المنشودة، وهي تفتيت جبهة قريش الداخلية، وإيقاع الهزيمة في نفوسهم، وإبعاد حلفائهم عنهم، وإن هذه النتيجة لتعد بحق نصراً ساحقاً حققه رسول الله ﷺ على الجبهات السياسية والإعلامية والعسكرية [١].

٣ ـ سفارة الحُلس بن علقمة:

ثم بعثوا الحلس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه»، وأمر برفع الصوت في التلبية، فلما رأى الحلس الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، رجع إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، وذلك إعظاماً لما رأى [٢]، فقد كان الوادي مجدباً لا ماء فيه ولا مرعى، وقد أكل الهدى أوباره من طول الحبس عن محله، ورأى المسلمين وقد استقبلوه رافعين أصواتهم بالتلبية وهم في زي الإحرام، قد شعثوا من طول المكوث على إحرامهم... ولذلك استنكر تصرف قريش بشدة، وانصرف سيد بني كنانة عائداً من حيث أتى دون أن يفاتح النبي ﷺ بشيء، أو أن يفاوضه كما كان مقرراً من قبل، واعتبر عمل قريش عداونياً ضد زوار بيت الله الحرام، ولا يجوز لأحد أن يؤيدها أو أن يناصرها على ذلك [٣]، فرجع محتجاً على قريش التي أعلنت غضبها لصراحة الحلس، وحاولت أن تتلافى هذا الموقف الذي يهدد بانقسام خطير في جبهة قريش العسكرية، ونسف الحلف المعقود بين قريش والأحابيش، وقالوا لزعيم الأحابيش: إنما كل ما رأيت هو مكيدة من محمد وأصحابه، فاكفف عنا حتى نأخذ نفسنا ما نرضى به [٤].

لقد كان النبي ﷺ عالماً ومستوعباً لشخصية الحلس ونفسيته، ويظهر ذلك في قوله ﷺ: «هذا من قوم يتألهون»... فالواضح من هذه المعلومة أن النبي ﷺ كان على معرفة تامة بهذا الرجل، وبحكم هذه المعرفة قد درس شخصيته دراسة موضوعية، وذلك بما كان عنده من حب شديد من التعظيم للحرمات والمقدسات، والعمل على الاستفادة الكاملة من هذا الجانب في كسب المعركة، وعلى هذا الأساس فقد قام ﷺ بوضع خطة محكمة مناسبة تقضي بوضع الحقائق كاملة، أمام هذا الرجل، وإظهار موقف المسلمين أو على الأقل وقوفه على الحياد في هذا الصراع.

---

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية (ص ١٤٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٨٨).
(٣) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية (ص ١٠٨).
(٤) المغازي الواقدي، (٢/ ٦٠٠).

والجدير بالذكر أن الحلس كان يتمتع بسمعة طيبة بين العرب جميعاً، وذلك لما يتميز به من رجاحة العقل، ولما يتمتع به من مركز ممتاز بوصفه زعيماً وقائداً لقوات الأحابيش، كما كان يتمتع باحترام وتقدير من جانب النبي ﷺ وقريش على حد سواء، لهذا فإنه إذا ما تبيّن له أن الحق والعدل في جانب المسلمين، فإنه يستطيع أن يقوم بدور هام في إحلال السلام بين الطرفين المتنازعين، والعمل على كبح جماح قريش، وإقناعها بالعدول عن موقفها العدائي ضد المسلمين، وصدهم عن المسجد الحرام، ومن هنا فقد كانت الدراسة النفسية التي قام بها رسول الله ﷺ لشخصية الحليس تتناسب كلياً مع المبادىء التي يؤمن بها، وعلى ذلك فقد كانت درجة التأثير والاستجابة الناتجة عن هذه العملية إيجابية تماماً [١] ومرضية. وهكذا استطاع ﷺ أن يؤثر على عروة بن مسعود والحليس بن علقمة مما جعل الانشقاق يدب في صفوف مشركي مكة؛ يقول الأستاذ العقاد عن قدرة الرسول في توظيف الطاقات وإدارة الصراع: كان لرسول الله ﷺ الخبير بتجنيد بعوث الحرب وبعوث الاستطلاع خبيراً كذلك بتجنيد كل قوة في يده متى وجب القتال؛ إن كانت قوة رأي، أو قوة لسان، أو قوة نفوذ. فما نعرف أن أحداً وجّه قوة الدعوة توجيهاً أشد، ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه ﷺ، ثم يضيف الكاتب قائلاً: والدعوة في الحرب ـ كما لا يخفى ـ لها غرضان أصيلان من بين أغراضها العديدة: أحدهما إقناع خصمك والناس بحقك، وثانيهما: إضعافه عن قتالك بإضعاف عزمه وإيقاع الشتات بين صفوفه، ثم يقول: وربما بلغ النبي ﷺ برجلٍ واحدٍ في هذا الغرض ما لم تبلغه الدول بالفرق المنظمة [٢].

٤ ـ سفارة مكرزة بن حفص:

وكان من سفراء قريش يوم الحديبية مكرز بن حفص، وقد روى البخاري ذلك فقال: .... فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال النبي ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة، أنه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبي ﷺ: «لقد سهل لكم من أمركم» [٣] ولنا حديث مع سهيل بإذن الله تعالى.

سادساً: الوفود النبوية إلى قريش ووقع بعض الأسرى في يد المسلمين:

رأى النبي ﷺ أن من الضرورة إرسال مبعوث خاص من جانبه إلى قريش، يبلغهم فيها نواياه السلمية بعدم الرغبة في القتال، واحترام المقدسات، ومن ثم أداء مناسك العمرة، والعودة إلى المدينة، فوقع الاختيار على أن يكون مبعوث الرسول ﷺ إلى قريش (خراش بن أمية

---

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية (ص ١١١).

(٢) انظر: عبقرية محمد ﷺ (ص ٤٩).

(٣) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٣٩) رقم (٢٧٣٢).

الخزاعي) وحمله على جمل يقال له: (الثعلب)، فلما دخل مكة عقرت به قريش وأرادوا قتل خراش فمنعهم الأحابيش، فعاد خراش بن أمية إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما صنعت قريش، فأراد رسول الله ﷺ أن يرسل سفيراً آخر بتبليغ قريش رسالة رسول الله ﷺ، ووقع اختيار الرسول ﷺ في بداية الأمر على عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)[١]، فاعتذر لرسول الله ﷺ عن عدم الذهاب إليهم، وأشار على رسول الله ﷺ أن يبعث عثمان مكانه[٢]، وعرض عمر رضي الله عنه رأيه هذا معززاً بالحجة الواضحة، وهي ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء، وحيث إن هذا الأمر لم يكن متحققاً بالنسبة لعمر رضي الله عنه، فقد أشار على النبي ﷺ بعثمان رضي الله عنه، لأن له قبيلة تحميه من أذى المشركين حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ[٣]، وقال لرسول الله: إني أخاف قريشاً على نفسي، قد عرفت عداوتي لها، وليس بها من بني عدي من يمنعني، وإن أحببت يا رسول الله دخلت عليهم[٤]، فلم يقل رسول الله شيئاً، قال عمر: ولكن أدلك يا رسول الله على رجل أعز بمكة مني، وأكثر عشيرة وأمنع، عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه فقال: «اذهب إلى قريش فخبّرهم أنا لم نأت لقتال أحد، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت، معظمين لحرمته، معنا الهدي، ننحره وننصرف»، فخرج عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى أتى بلدح[٥]، فوجد قريشاً هنالك فقالوا: أين تريد؟

قال: بعثني رسول الله ﷺ إليكم، يدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، تدخلون في الدين كافة، فإن الله مظهر دينه ومعز نبيه، وأخرى تكفون ويلي هذا منه غيركم، فإن ظفروا بمحمد فذلك ما أردتم، وإن ظفر محمد كنتم بالخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامون، إن الحرب قد نهكتكم، وأذهبت بالأماثل منكم... فجعل عثمان يكلمهم فيأتيهم بما لا يريدون ويقولون: قد سمعنا ما تقول ولا كان هذا أبداً، ولا دخلها علينا عنوة، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا.

فقام إليه أبان بن سعد بن العاص فرحّب به وأجاره. وقال: لا تقصر عن حاجتك، ثم نزل عن فرس كان عليه، فحمل عثمان على السرج وردفه وراءه، فدخل عثمان مكة، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً، أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وغيرهما، منهم من لقي ببلدح، ومنهم من لقي بمكة، فجعلوا يردون عليه: إن محمداً لا يدخلها علينا أبداً[٦].

---

(١) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس، (ص ٨٣).
(٢) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٦٠٠).
(٣) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٦٠٠).
(٤) المصدر نفسه، (ص ٢/ ٦٠٠).
(٥) مكان قريب من مكة.
(٦) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠)؛ السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٤).

وعرض المشركون على عثمان ﷺ أن يطوف بالبيت فأبى [١]، وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى المستضعفين بمكة وبشّرهم بقرب الفرج والمخرج [٢]، وأخذ منهم رسالة شفهية إلى رسول الله ﷺ جاء فيها: اقرأ على رسول الله ﷺ منا السلام، إن الذي أنزله بالحديبية لقادر على أن يدخله بطن مكة [٣].

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقين كلاهما، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم [٤] وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤].

وقد روى مسلم سبب نزول الآية السابقة: أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غرة [٥] النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلماً [٦]، فاستحياهم [٧]، فأنزل الله ﷻ الآية المذكورة [٨].

وهذا سلمة بن الأكوع يحدّثنا عما حدث قال: ثم إن المشركين راسلونا الصلح، حتى مشى بعضنا في بعض، واصطلحنا قال: وكنت تبيعاً [٩] لطلحة بن عبيد الله، أسقي فرسه، وأحسه [١٠]، وأخدمه وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي، مهاجراً إلى الله ورسوله قال: فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها [١١]، فاضطجعت في أصلها، قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ، فأبغضتهم فتحوّلت إلى شجرة أخرى، وعلقوا سلاحهم، واضطجعوا. فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي: يا للمهاجرين! قتل ابن زنيم! قال: فاخترطت سيفي [١٢]، ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٤).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩٠).
(٣) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس، (ص ٨٥).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩١).
(٥) (غرة)الغرة هي الغفلة: أي يريدون غفلته (شرح النووي ١٢/ ١٨٧).
(٦) سلما: المراد به الاستسلام والإذعان (شرح النووي ١٢/ ١٨٧).
(٧) فاستحياهم: فاستبقهم (المفردات للراغب، ص ١٤٠).
(٨) مسلم، كتاب الجهاد والسير (٣/ ١٤٤٢).
(٩) تبيعاً: خادماً أتبعه (شرح النووي ١٢/ ١٧٦).
(١٠) وأحسه: أي أحك ظهره بالمحسة لأزيل عنه الغبار. (شرح مسلم النووي ١٢/ ١٧٦).
(١١) فكسحت شوكها: أي كنست ما تحتها من الشوك. (شرح مسلم النووي ١٢/ ١٧٦).
(١٢) فاخترطت سيفي: أي سللته. (شرح مسلم النووي ١٢/ ١٧٦).

فجعلته ضغثاً [١] في يدي. قال: ثم قلت: والذي كرّم وجه محمد ما يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه [٢]، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ قال: وجاء عمي عامر برجل من العبلات [٣] يقال له مكرز يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مجفف [٤] في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال: «دعوهم، يكن لهم بدء الفجور وثناه» [٥]، فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفَتْح: ٢٤] [٦].

قال ابن كثير: هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حيث كفّ أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفّ أيدي المؤمنين عن المشركين، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين وعافية في الدنيا والآخرة[٧].

سابعاً: بيعة الرضوان:

لما بلغ النبي ﷺ أن عثمان رضي الله عنه قُتل، دعا رسول الله أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين ومناجزتهم، فاستجاب الصحابة وبايعوه على الموت [٨]، سوى الجد بن قيس وذلك لنفاقه [٩]، وفي رواية أن البيعة كانت على الصبر [١٠]، وفي رواية على عدم الفرار [١١]، ولا تعارض في ذلك لأن المبايعة على الموت تعني الصبر وعدم الفرار [١٢].

وكان أول من بايعه على ذلك أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي [١٣] فخرج الناس بعده يبايعون على بيعته [١٤]، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات في أول الناس،

---

(١) ضغثاً: الضغث: الحزمة. (شرح مسلم النووي ١٢/١٧٦).
(٢) الذي فيه عيناه: يريد رأسه.
(٣) العبلات: قوم من قريش نسبوا إلى أمهم عبلة بنت عبيد (شرح مسلم النووي (١٢/١٧٧).
(٤) مجفف: أي عليه تجفاف وهو ثوب كالجل يلبسه الفرس ليقيه من السلاح.
(٥) (وثناه) أي عودة ثانية (شرح مسلم للنووي ١٢/١٧٦).
(٦) مسلم، كتاب الجهاد والسير (٣/ ١٤٣٢).
(٧) تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٢).
(٨) البخاري رقم الحديث (٤١٦٩).
(٩) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٨٦).
(١٠) البخاري، رقم (٤١٦٩).
(١١) مسلم، رقم (١٨٥٦).
(١٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٨٦).
(١٣) المصدر نفسه، (ص ٤٨٦).
(١٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٨٦).

وأوسطهم وآخرهم [١]، وقال النبي ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان» فضرب بها على يده [٢]، وكان عدد الصحابة الذين أخذ منهم الرسول ﷺ المبايعة تحت الشجرة ألف وأربعمائة صحابي [٣] وقد تحدّث القرآن الكريم عن أهل بيعة الرضوان، وورد فضلهم في نصوص كثيرة من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية منها:

ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفَتْح: ١٠] .

وهذ الآية فيها ثناء ومدح عظيم لأهل بيعة الرضوان، فقد جعل الله مبايعتهم لرسوله ﷺ مبايعة له، وفي هذا غاية التشريف والتكريم لهم (ﷺ [٤]).

وقد ورد الثناء عليهم في السنّة المطهرة في أحاديث كثيرة ومن ذلك ما يلي:

أ ـ من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم اليوم خير أهل الأرض»، وكنا ألفاً وأربعمائة ولو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة [٥].

ب ـ وقال جابر بن عبد الله ﷺ: أخبرتني أم مبشر: أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار، إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها» قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال النبي ﷺ: «قد قال الله ـ ﷻ ـ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريَم: ٧١ ـ ٧٢] .

قال النووي رحمه الله تعالى: قوله ﷺ: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها»، قال العلماء: معناه لا يدخلها أحد منهم قطعاً. . . . وإنما قال إن شاء الله للتبرك لا للشك، وأما قول حفصة بلى وانتهار النبي ﷺ لها فقالت: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال النبي ﷺ: وقد قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ فيه دليل للمناظرة والجواب على وجه الاسترشاد وهو مقصود حفصة، لا أنها أرادت رد مقالته ﷺ، والصحيح أن المراد بالورود في الآية المرور على الصراط وهو جسر منصوب على جهنم فيقع فيها أهلها وينجو الآخرون [٦].

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩١).
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٤٠٤).
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٨٢).
(٤) انظر: عقيدة أهل السنة في الصحابة، د. ناصر حسن الشيخ (١/ ٢٠٥).
(٥) مسلم (٣/ ١٤٨٥).
(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٨٥).

وحين نمعن النظر في هذا الجيل الفريد مقارنة مع أهل بدر نلاحظ ارتفاع عدد المهاجرين إلى النصف من الجيش، وهذا الارتفاع الهائل في عدد المهاجرين من ثلاثة وثمانين في بدر إلى ثمانمائة، كان معظمه من القبائل العربية المجاورة وهي قبائل صغيرة، إذا قيست بالقبائل الكبرى، لكن شبابها كانوا يغدون إلى المدينة، ينضوون تحت لواء رسول الله ﷺ، ويتلقون التربية اليومية في المسجد، والتربية العملية في المعارك والغزوات، فيتدربون على الجندية الخالصة ويفقهون دينهم مباشرة من رسول رب العالمين، وينشأون في ظلال القدوة العليا لهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ويتنافسون في الطاعة والامتثال لأمر الله ورسوله، فنالت قبائلهم بذلك شرفاً ربا على القبائل الكبرى التي تخاذلت في الانضمام للإسلام. فقبيلة أسلم وغفار كانت على رأس هذه القبائل، ويعود الفضل ـ بعد الله ـ في ذلك إلى الرعيل الأول منهم، واللبنات الأولى التي انضمت إلى الدعوة؛ إلى أبي ذر الغفاري الذي كان من السابقين في إسلامه بمكة، ومضى داعياً في قومه حتى جاءه سبعون بيتاً من غفار يؤم بهم المدينة بعد أحد، وإلى بريدة بن الحصيب الأسلمي، الذي تلقى رسول الله ﷺ قبل دخوله المدينة، فأسلم ومعه سبعون من قومه كذلك [١].

أما القبائل الأخرى من مزينة وجهينة وأشجع وخزاعة، فقد بدأ شبابها يفدون إلى المدينة، لكن بأعداد ضئيلة، وبقي كيان القبيلة على الشرك، وبقي أعرابياً بعيداً عن محضن التربية العظيم داخل المدينة، فلم يتح له هذا الفضل، والاغتراف من رحيق النبوة، ولهذا كانت الآيات ـ التي نزلت في المخلفين من الأعراب ـ كالصواعق على رؤوسهم، لتخلفهم عن الاضمام إلى الجيش الإسلامي الماضي إلى الحديبية [٢].

المبحث الثاني

صلح الحديبية وما ترتب عليه من أحداث

أولاً: مفاوضة سهيل بن عمرو لرسول الله ﷺ:

لما بلغ قريشاً أمر بيعة الرضوان، وأدرك زعماؤها تصميم الرسول ﷺ على القتال، أوفدوا سهيل بن عمرو في نفر من رجالهم لمفاوضة النبي ﷺ [٣]، ولما رأى رسول الله ﷺ سهيلاً قال: «لقد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل» [٤].

---

(١) انظر: التربية القيادية (٤/ ٢١٤).
(٢) انظر: التربية القيادية (٤/ ٢١٦).
(٣) انظر: التاريخ السياسي والعسكري (ص ٣٣٩، ٣٤٠).
(٤) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٦٠٢، ٦٠٤، ٦٠٥).

كان سهيل بن عمرو أحد زعماء قريش البارزين الذين كانوا يُعرفون بالحنكة السياسية والدهاء، فهو خطيب ماهر، ذو عقل راجح، ورزانة، وأصالة في الرأي.

شرع الفريقان المتفاوضان في بحث بنود الصلح، وذلك بعد رجوع عثمان بن عفان ﷺ، وقد استعرض الفريقان النقاط التي يجب أن تتضمنها معاهدة الصلح، واستعرضا في مباحثاتهما مختلف القضايا التي كانت تشكل مثار الخلاف بينهما، هذا وقد اتفق الفريقان من حيث المبدأ على بعض النقاط، واختلفا على البعض الآخر، وقد طال البحث والجدل والأخذ والرد حول هذه البنود، وبعد المراجعات والمفاوضات تقاربت وجهات النظر بين الفريقين، وعند الشروع في وضع الصيغة النهائية للمعاهدة وكتابتها لتكون نافذة المفعول رسمياً، حدث خلاف بين الوفدين على بعض النقاط، كاد أن يعثِّر سير هذه الاتفاقية، فعندما شرع النبي ﷺ في إملاء صيغة المعاهدة المتفق عليها، أمر الكاتب، وهو الإمام علي بن أبي طالب، بأن يبدأ المعاهدة بكلمة: (بسم الله الرحمن الرحيم)، وهنا اعترض رئيس الوفد القرشي سهيل بن عمرو قائلاً: لا أعرف الرحمن، اكتب (باسمك اللهم) فضج الصحابة على هذا الاعتراض، قائلين: هو الرحمن، ولا نكتب إلا الرحمن، ولكن النبي ﷺ تمشياً مع سياسة الحكمة والمرونة والحلم، قال للكاتب: «اكتب باسمك اللهم» [١] واستمر في إملاء صيغة المعاهدة هذه، فأمر الكاتب أن يكتب (هذا ما اصطلح عليه رسول الله)، وقبل أن يكمل الجملة اعترض رئيس الوفد القرشي على كلمة رسول الله قائلاً: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك، واتبعتك، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله؟ اكتب اسمك واسم أبيك [٢].

واعترض المسلمون على ذلك، ولكن رسول الله بحكمته وتسامحه وبُعد نظره، حسم الخلاف، وأمر الكاتب بأن يشطب كلمة رسول الله من الوثيقة، فالتزم الصحابة الصمت والهدوء.

إن النبي ﷺ وافق المشركين على ترك كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم) وكتابة (باسمك اللهم) بدلاً عنها، وكذا وافقهم في كتابة محمد بن عبد الله وترك كتابة رسول الله ﷺ، وكذا وافقهم في رد من جاء منهم إلى المسلمين دون من ذهب منهم إليهم، وإنما وافقهم في هذه الأمور للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح، مع أنه لا مفسدة في هذه الأمور، أما البسملة وباسمك اللهم فمعناها واحد، وكذا قوله (محمد بن عبد الله) هو أيضاً رسول الله ﷺ وليس في ترك وصف الله سبحانه وتعالى في هذا الموضع بالرحمن الرحيم ما ينفي ذلك، ولا في ترك وصف النبي ﷺ بالرسالة ما ينفيها، ولا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا

(١) انظر: مغازي الواقدي، (٢/ ٦١٠).
(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٦١٠).

أن يكتب ما لا يحل من تعظيم آلهتهم ونحو ذلك.

وأما شرط ردّ من جاء منهم وعدم رد من ذهب إليهم، فقد بيّن النبي ﷺ تعليل ذلك والحكمة فيه في هذا الحديث، بقوله: «من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً» ثم كان كما قال ﷺ [(١)].

وتمّ عقد هذه المعاهدة وكانت صياغتها من عشرة بنود جاءت على الشكل التالي:

١ ـ باسمك اللهم.

٢ ـ هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

٣ ـ واصطلحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٤ ـ على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله، فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام، يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله.

٥ ـ على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.

٦ ـ وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال. [(٢)]

٧ ـ وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه (فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش، وعهدهم).

٨ ـ وأنت ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، ولا تدخلها بغيرها.

٩ ـ وعلى أن هذا الهدى ما جاثناه ومحله فلا تقدمه علينا.

١٠ ـ شهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين:

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٣٤٢).

(٢) العيبة هنا مثل: والمعنى أن بيننا صدوراً سليمة في المحافظة على العهد الذي عقدناه بيننا، وقد يشبه صدر الإنسان الذي هو مستودع سره، وقوله لا إسلال ولا إغلال: تعني الإسلال من السلة وهي السرقة، والإغلال أي الخيانة والمعنى العام أن بعضنا يأمن بعضاً في نفسه وماله، فلا يتعرض لدمه ولا لماله.

فمن المسلمين: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وعلي بن أبي طالب كاتب المعاهدة ﷺ أجمعين.

ومن المشركين: مكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو [١].

تعتبر هذه المعاهدة أساساً للمعاهدات الإسلامية ونموذجاً فريداً للمعاهدات الدولية، بما سبقها من مفاوضات وما حوته من شروط، وما تمثّل بها من خلق النبي ﷺ في النزول عند رضا الطرف الآخر، وفي كيفية الصياغة والالتزام. هذه المعاهدة سبقها مفاوضات من قبل المشركين والمسلمين، وفشل بعض الممثلين في الوصول إلى اتفاق، ودارت مشاورات شتى من الجانبين قبل الوصول إليه، حتى توصل الفريقان إلى اتفاق عن طريق ممثل المشركين (سهيل بن عمرو) ورسول الله ﷺ على ملأ المسلمين.

عقدت هذه المعاهدة في الوقت الذي كان فيه المسلمون بمركز القوة لا الضعف، وكان باستطاعتهم أن لا يقبلوا شروطها التي اغتاظ منها كثير من الصحابة، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طوع رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وقد تمادى رسول قريش على رسول الله في مفاوضته، وكان فرداً بين جيش المسلمين، فلم ينله أذى ولم يتمادى عليه المسلمون بالقتل(لأن السفراء لا تقتل)، ولكن رسول الله يرضيه ويسعه بالحلم واللين، حتى يصل إلى الغاية التي ينشدها الإسلام، وهي حقن الدماء وإحلال السلام ورجاء أن يعقل القوم الحق، وأن يراجعوا المواقف، ويسمعوا كلام الله [٢]، وتدخل الدعوة الإسلامية طوراً جديداً بصور أخرى في الانتشار والاتصال بالناس، عندما نتأمل نصوص المعاهدة التي تمت في الحديبية فإننا نأخذ منها الآتي:

١ - إن ديباجة المعاهدات الإسلامية كانت تبدأ باسم الله، أو باسمك اللهم، والقانون الدولي في صياغة المعاهدات. يقول: (تبدأ كتابة المعاهدات بديباجة يتفق عليها طرفا التعاقد).

والذي يجب أن نلاحظه، بأن المعاهدات في الإسلام تستند إلى الله الذي تبدأ باسمه سبحانه، حيث هو الرقيب والحسيب على ما في النوايا والقلوب، واسم الله مقدس في كل قلب يؤمن به، حتى أولئك الذين فسدت عقائدهم، فإنهم لا ينكرون الله، ولكنهم أفسدوا تصورهم لذات الله، وقد جرت أعراف بعض الذين يستهوون قلوب العامة بالشعارات الجوفاء أن يقولوا بدل اسم الله: باسم الشعب، أو باسم الأمة، باعتبار قدسية ما يبدأون به

(١) المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، د. محمد الديك (ص ٢٧٠، ٢٧١).
(٢) انظر: المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (ص ٢٦٨، ٢٦٩).

كما يزعمون، ولكن الذي يؤمن بالله لا يعدل عن قدسية الله في اعتقاده، ولذلك كانت البداية (باسمك اللهم).

٢ ـ ذكر في المعاهدة طرفا التعاقد بعد (الديباجة) كما يسميها القانون الدولي، وهذا ما عليه القانون الدولي العام من أنه يذكر بعد الديباجة أسماء الممثلين أو الدول التي هي أطراف في عقد المعاهدة.

٣ ـ بواعث المعاهدة، فقد جاء في بداية هذه المعاهدة ذكر الصلح؛ لأجل وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، وهذا ما عليه القانون الدولي العام كذلك.

٤ ـ الدخول في صلب المعاهدة وشروطها، حيث ذكر رسول الله ﷺ في هذه المعاهدة الشروط المتفق عليها بين الطرفين، وهذا ما عليه القانون الدولي العام.

٥ ـ في معاهدة صلح الحديبية جواز ابتداء الإمام (رئيس الدولة الإسلامية) بطلب صلح العدو، إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم [(١)].

٦ ـ إن مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائز للمصلحة الراجحة ودفع ما هو شر منه، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناها [(٢)].

٧ ـ إن صلح الحديبية سمّاه الله فتحاً، لأن الفتح في اللغة هو فتح المغلق، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مغلقاً ففتحه الله، والصلح كذلك يفتح القلوب المغلقة نحو الطرف الآخر.

لقد كانت الصورة الظاهرة في شروط الحديبية فيها ضيم للمسلمين، وهي في باطنها عز وفتح ونصر، حيث كان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراء المعاهدة من الفتح العظيم من وراء ستر رقيق، وكان يعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط التي لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم، وهو ﷺ يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب [(٣)].

٨ ـ إن المعاهدة قد تكون مفتوحة لمن يحب أن يدخل فيها من الأطراف أو الدول الأخرى، وهذا ما عليه القانون الدولي حيث أجاز أن تكون المعاهدة مفتوحة لمن يحب الدخول فيها من الأطراف الأخرى، فقد دخلت خزاعة وكنانة في الصلح، الذي أنهى حالة الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين، والتي امتدت سنوات عديدة [(٤)].

---

(١) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٣٠٦).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٣٠٦).
(٣) انظر: المعاهدات في الشريعة الإسلامية (ص ٢٧٢).
(٤) انظر: صلح الحديبية، باشميل (ص ٢٨٠).

٩ ـ إن المعاهدة لا بدّ لها من توقيع الأطراف والإشهاد عليها، وتوقيع رسول الله ﷺ وإشهاد أصحابه، إنما هو بمثابة التوقيع على المعاهدة والتصديق عليها، كما هو في القانون الدولي العام.

١٠ ـ إن المعاهدة يجوز أن يكون الوسيط فيها طرفاً محايداً، أو طرفاً يقرّب بين وجهات النظر كوساطة سيد الأحابيش (الحليس بن علقمة) حليف قريش الأكبر، طلبت منه قريش أن يكون وسيطاً بينهم وبين المسلمين، وكان الحليس ذا عقل راجح وبصيرة نافذة، وكان سيداً مطاعاً، وكان رسول الله ﷺ يعرفه ويعرف فيه التأله الشديد والتعظيم للحرم.

وعندما اختارته قريش كانت تطمع في أن يكون لمركزه الممتاز بين العرب ـ ولما يتمتع به من تقدير لدى النبي ﷺ ـ تأثير على الرسول وأصحابه [١].

وهذا ما يقره القانون الدولي، حيث إن المعاهدة قد تعقد بوساطة دولة أخرى ليست طرفاً في النزاع، أو أحد المبعوثين الذي لا علاقة له أو لدولته في النزاع القائم بين طرفي التعاقد.

١١ ـ إن المعاهدة تعتبر نافذة المفعول بمجرد الاتفاق عليها وعلى شروطها، حتى وإن لم تكتب ولم يوقع عليها الطرفان، وذلك كما حدث لأبي جندل بن سهيل بن عمرو الذي ردّه الرسول ﷺ بموجب قبوله عليه السلام بالبند الخامس من المعاهدة، والذي يقول: (على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم...) فمنذ أعلن رسول الله ﷺ التزامه بهذا الشرط أجراه ولم تكن المعاهدة قد كتبت بعد، ولم يوقّع عليها الطرفان.

١٢ ـ إن المعاهدة تكتب من نسختين، ويأخذ كل طرف نسخة طبق الأصل من المعاهدة، حيث إنه بعد أن تمّت إجراءات الصلح النهائية في الحديبية، أخذ كل من الفريقين نسخة من وثيقة الصلح التاريخية، وانصرف الوفد القرشي راجعاً إلى مكة [٢].

ثانياً: موقف أبي جندل والوفاء بالعهد:

إن من أبلغ دروس صلح الحديبية درس الوفاء بالعهد، والتقيد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التي يقطعها المسلم على نفسه، وقد ضرب رسول الله ﷺ بنفسه أعلى مثل في التاريخ القديم والحديث لاحترام كلمة لم تكتب، واحترام كلمة تكتب كذلك، وفي الجد في عهوده وحبه للصراحة والواقعية، وبغضه التحايل والالتواء والكيد، وذلك حينما كان يفاوض (سهيل بن عمرو) في الحديبية، حيث جاءه ابن سهيل يرسف في الأغلال، وقد فرّ من مشركي مكة، وكان أبوه يتفاوض مع الرسول ﷺ، وكان هذا الابن ممن آمنوا بالإسلام، جاء مستصرخاً

(١) انظر: صلح الحديبية، باشميل (ص ١٩٩، ٢٠٠).
(٢) انظر: المعاهدات في الشريعة الإسلامية (ص ٢٧٣).

بالمسلمين، وقد انفلت من أيدي المشركين، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذه بتلابيبه وقال: يا محمد لقد لجت القضية بيني وبينك، أي فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت»، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أأُرد إلى المشركين يفتنوني في ديني، فلم يغني عنه ذلك شيئاً، وردّه رسول الله ﷺ، وقال لأبي جندل: «إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهداً، وإنا لا نغدر بهم»، غير أن النبي ﷺ إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصلح بينه وبين أن يجد مخرجاً منها لأبي جندل المسلم، طمأن أبا جندل وبشّره بقرب الفرج له ولمن على شاكلته من المسلمين وقال له ـ وهو يواسيه ـ: «يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً» [(١)]. وفي هذه الكلمات النبوية المشرقة العظيمة دلالة ليس فوقها دلالة على مقدار حرص رسول الله ﷺ وتمسكه بفضيلة الوفاء بالعهد، مهما كانت نتائجه وعواقبه، فيما يبدو للناس [(٢)]. لقد كان درس أبي جندل امتحاناً قاسياً ورهيباً لهذا الوفاء بالعهد أثبت فيه الرسول ﷺ والمسلمون نجاحاً عظيماً في كبت عواطفهم وحبس مشاعرهم، وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل وتأثروا من ذلك المشهد، عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه، والدماء تنزف منه، ومما زاد في إيلامهم، حتى أن الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفاقاً منهم على أخيهم في العقيدة، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك وهو يسحبه بفظاظة الوثني الجلف ليعود به مرةً أخرى إلى سجنه الرهيب في مكة.

وقد صبر أبو جندل واحتسب لمصابه في سبيل دينه وعقيدته وتحقق فيه قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطّلاق: ٢ ـ ٣].

فلم تمر أقل من سنة حتى تمكن مع إخوته المسلمين المستضعفين بمكة من الإفلات من سجون مكة، وأصبحوا قوة صار كفار مكة يخشونها، بعد أن انضموا إلى أبي بصير، وسيطروا على طرق قوافل المشركين الآتية من الشام [(٣)]، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً بإذن الله تعالى.

ثالثاً: احترام المعارضة النزيهة:

بعد الاتفاق على معاهدة الصلح وقبل تسجيل وثائقها ظهرت بين المسلمين معارضة شديدة، وقوية لهذه الاتفاقية، وخاصة في البندين اللذين يلتزم النبي ﷺ بموجبها بردّ من جاءه من المسلمين لاجئاً، ولا تلتزم قريش بردّ من جاءها من المسلمين مرتداً، والبند الذي يقضي بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة، دون أن يدخلوا مكة ذلك العام، وقد كان أشد الناس

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٧).
(٢) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٢٧٥).
(٣) انظر: صلح الحديبية، باشميل (ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥).

معارضة لهذه الاتفاقية وانتقاداً لها، عمر بن الخطاب، وأسيد بن حضير سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج.

وقد ذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله معلناً معارضته لهذه الاتفاقية وقال لرسول الله ﷺ: ألست برسول الله؟ قال: «بلى»، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى»، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الدنيَّة في ديننا؟ قال: «إني رسول الله ولست أعصيه [١]»، وفي رواية: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني» [٢]، قلت: أوليس كنت تحدّثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به». قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت له:

يا أبا بكر: أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنيَّة في ديننا؟ فقال أبو بكر ـ ناصحاً الفاروق بأن يترك الاحتجاج والمعارضة ـ الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به، ولن يخالف أمر الله ولن يضيعه الله [٣].

وبعد حادثة أبي جندل المؤلمة المؤثرة عاد الصحابة إلى تجديد المعارضة للصلح، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله ﷺ بينهم عمر بن الخطاب لمراجعته، وإعلان معارضتهم مجدداً للصلح، إلا أن النبي ﷺ بما أعطاه الله من صبر وحكمة وحلم وقوة حجة استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصلح، وأنه في صالح المسلمين وأنه نصر لهم [٤]، وأن الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجاً ومخرجاً، وقد تحقق ما أخبر به ﷺ.

وبهذا يتبيّن أن الرسول ﷺ وضع قاعدة احترام المعارضة النزيهة حيث قرر ذلك بقوله وفعله، وهو ـ والله أعلم ـ إنما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النزيهة التي تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السليمة التي تخدم المصلحة العامة [٥].

وهذا الهدى النبوي الكريم بيَّن أن حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي، وأن للفرد في المجتمع المسلم الحرية في التعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرأي نقداً لموقف حاكم من الحكام أو خليفة من الخلفاء، فمن حق الفرد المسلم أن يبيِّن وجهة نظره في جو من الأمن والأمان دون إرهاب أو تسلط يخنق حرية الكلمة والفكر.

---

(١) انظر: من معين السيرة (ص ٣٣٣).
(٢) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٣٤).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٦).
(٤) انظر: صلح الحديبية، باشميل، (ص ٢٧٠).
(٥) انظر: القيادة العسكرية في عهد رسول الله (ص ٤٩٥).

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله ﷺ أن المعارضة لرئيس الدولة في رأي من الآراء، وموقف من المواقف، ليست جريمة تستوجب العقاب، ويُغَيّبْ صاحبها في غياهب السجون [١].

رابعاً: التحلل من العمرة ومشورة أم سلمة رضي الله عنها:

لمَّا فرغ رسول الله ﷺ من قضية كتابة الصلح قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»... حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلمَّا لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا [٢].

وقد حلق رجال يوم الحديبية، وقصر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله المحلقين»، فقالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» [٣].

وكان في هدي النبي ﷺ في الحديبية جمل لأبي جهل في رأسه برة [٤] من فضة، يغيظ بذلك المشركين [٥]، وفي هذه الحادثة تستوقفنا أمور فيها دروس وعِبَر منها:

١ - كان رأي أم سلمة سديداً ومباركاً حيث فهمت رضي الله عنها عن الصحابة أنه وقع في أنفسهم أن يكون النبي ﷺ أمرهم بالتحلل أخذاً بالرخصة في حقهم، وأنه يستمر على الإحرام أخذاً بالعزيمة، في حق نفسه، فأشارت على النبي ﷺ أن يتحلل لينتفي عنهم هذا الاحتمال، وعرف النبي ﷺ صواب ما أشارت به ففعله، فلما رأى الصحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به، فلم يبق بعد ذلك غاية تنتظر، فكان ذلك رأياً سديداً ومشورة مباركة، وفي ذلك دليل على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرة صائبة ورأي سديد [٦]. كما أنه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من رجل أو امرأة طالما أنها مشورة صائبة، وهذا عين التكريم للمرأة التي يزعم أعداء الإسلام أنه غمطها حقها وتجاهل وجودها، وهل هناك اعتراف واحترام لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبي مرسل، ويعمل النبي ﷺ

---

(١) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس (ص ١٣٤، ١٣٥).
(٢) البخاري، كتاب الشروط (٣/ ٢٤٠) رقم (٢٧٣٢).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٨).
(٤) البرة: حلقة تجعل في أنف البعير ليذل ويرتاض.
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٩).
(٦) انظر: ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية، (ص ١٦١).

بمشورتها لحل مشكلة اصطدم بها وأغضبته [١].

٢ - أهمية القدوة العملية، فقد دعا رسول الله ﷺ إلى أمر وكرّره ثلاث مرات وفيهم كبار الصحابة وشيوخهم، ومع ذلك لم يستجب أحد لدعوته، فلما قدم رسول الله ﷺ على الخطوة العملية التي أشارت بها أم سلمة تحقق المراد، فالقدوة العملية في مثل هذه المواقف أجدى وأنفع [٢].

٣ - حكم الإحصار في العمرة والحج: دل عمل الرسول ﷺ بعد الفراغ من أمر الصلح، من التحلل والنحروالحلق، على أن المحصر يجوز له أن يتحلل، وذلك بأن يذبح شاة حيث أحصر أو ما يقوم مقامها، ويحلق ثم ينوي التحلل مما كان قد أهلّ به، سواء كان حجاً أو عمرة، كما دلّ على أن المتحلل لا يلزم بقضاء الحج أو العمرة إذا كان متطوعاً، وخالف الحنفية فرأوا أن القضاء بعد المباشرة واجب. بدليل أن جميع الذين خرجوا معه ﷺ في صلح الحديبية خرجوا معه في عمرة القضاء، إلا من توفي أو استشهد منهم في غزوة خيبر [٣].

خامساً: العودة إلى المدينة ونزول سورة الفتح:

ثم انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية قاصداً المدينة، حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُم نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفَتْح: ١١].

وقد عبَّر رسول الله ﷺ عن عظيم فرحته بنزولها، وقال: «أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس» [٤] ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفَتْح: ١]، فقال أصحاب رسول الله: هنيئاً مريئاً فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الفَتْح: ٥] [٥].

وقد أسرع الناس إلى رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بكراع الغميم فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فقال رجل: يا رسول الله: أفتح هو؟ قال: «نعم والذي نفس محمد بيده إنه لفتح» [٦]، فانقلبت كآبة المسلمين وحزنهم إلى فرح غامر، وأدركوا أنهم لا يمكن أن يحيطوا

---

(١) انظر: المعاهدات في الشريعة الإسلامية، (ص ٢٧٣).
(٢) انظر: تأملات في السيرة النبوية لمحمد السيد الوكيل، (ص ٢١١).
(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٢٤٣).
(٤) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (٥/ ٨٠) رقم (٤١٧٧).
(٥) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (٥/ ٧٨) رقم (٤١٧٢).
(٦) سنن أبي داود، معالم السنن، كتاب الجهاد رقم (٢٧٣٦).

بالأسباب والنتائج، وأن التسليم لأمر الله ورسوله فيه كل الخير لهم ولدعوة الإسلام [١].

كان حديث القرآن الكريم عن هذا الحدث العظيم في سورة الفتح، وكان القرآن الكريم له منهجه الخاص في عرضه لغزوة الحديبية، فنجد في حديثه عن هذه الغزوة أنه سمّى الصلح الذي وقع بين الفريقين مع عدم وقوع القتال «فتحاً مبيناً».

إننا بالتأمل في أسباب النزول نجد أن سورة الفتح نزلت بعد انتهاء النبي ﷺ من الصلح وهو عائد إلى المدينة النبوية، وبعد أن خاض النبي ﷺ والمؤمنون تلك التجارب العظيمة من الأمل في العمرة، إلى مواجهة المشركين، إلى بيعة الرضوان، إلى الصلح الذي لم يكن بعض الصحابة راضين عنه، ودارت في أنفسهم أشياء كثيرة حول هذه الأحداث الجسام.

ينزل القرآن الكريم لتزداد ثقة المؤمنين برسول الله ﷺ حين يبشّره الله على الملأ من الدنيا بأن الله تعالى فتح بالصلح ليغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كرامة منه سبحانه لرسوله ليزداد المسلمون ثقة واطمئناناً، بأنهم على الصواب، وأن ما فعلوه هو الحق ومآله السعادة، ثم بيَّن سبحانه أن توفيق الله كان مع المؤمنين، فهو الذي وفّقهم للصبر مع رسوله وموافقتهم أخيراً على ما جنح له من أمر الصلح، وأن ذلك كان بسبب إنزال السكينة على قلوبهم حتى على قلوب من أنكر بعض شروط الصلح، واستسلم للأمر على مضض، فلم يحصل رفض لهذا الصلح، بل كلهم نزلوا على أمر رسوله ﷺ بفضل السكينة التي أنزلها عليهم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفَتْح: ٤].

فالقرآن الكريم يبيِّن أن الله هو الذي أنزل السكينة عليهم ليتذكروا فضله، ويداوموا على شكره، وهذا الإعلام بإنزال السكينة مما يتميز به حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة، إذ السكينة أمر معنوي لا يعلم نزوله إلا الله،وأشار القرآن الكريم إلى بيعة الرضوان وهي مبايعة الصحابة للنبي على الموت فأثنى الله ـ ﷻ ـ على هذه البيعة، وكتب لها الخلود في القرآن، وقرر أنها مبايعة لله ﷻ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفَتْح: ١٠].

وبهذا نرى ما يتميز به القرآن الكريم في حديثه عن الغزوات، فهو يبيِّن الحقائق ويصحح العقائد، ويربّى النفوس، ويفضح المنافقين، ويبشِّر المسلمين بغنائم قريبة تحققت في خيبر، وبين أصحاب الأعذار، فليس كل من تخلف عن الجهاد يعاتب، وإنما هناك استثناء وهذا من كمال رحمته الإلهية. ثم لما تمّ صلح الحديبية، عاد المسلمون إلى المدينة ولم يتحقق ما

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٤٩).

قصدوه من دخول مكة، أشار ز إلى الرؤيا التي سبق أن رآها النبي ﷺ وبشّر بها أصحابه وبيّن أنها رؤيا صدق، وأنها ستتحقق قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفَتْح: ٢٧].

ثم اختتمت السورة الجليلة بصفات مدح للنبي ﷺ ولأصحابه الكرام [(١)].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفَتْح: ٢٨ ـ ٢٩].

لقد أيقن الصحابة الكرام أن الدعوة قد دخلت في طور جديد وفتح أكيد، وآفاق أوسع، وامتداد أرحب، وأن من طبيعة هذا الدين أن ينمو وينتعش في أجواء السلم والأمن، أكثر منه وقت الحرب، ولمسوا مع الأيام نتائج صلح الحديبية التي كان من أهمها:

١ ـ اعترفت قريش في هذه المعركة بكيان الدولة المسلمة، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين نِدَّيْن، وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودي، حيث كانوا يرون أنها الإمام والقدوة.

٢ ـ دخلت المهابة في قلوب المشركين والمنافقين، وتيقّن الكثير منهم بغلبة الإسلام، وقد تجلّت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثير من صناديد قريش إلى الإسلام، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، كما تجلّت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم.

٣ ـ أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام وتعريف الناس به، مما أدّى إلى دخول كثير من القبائل فيه، يقول الإمام الزهري: (فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلِّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثلُ من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر) [(١)].

وعقب عليه ابن هشام بقوله: والدليل على قول الزهري: أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥١).

بسنتين في عشرة آلاف [١].

٤ ـ أمن المسلمون جانب قريش فحولوا ثقلهم على اليهود، ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية.

٥ ـ مفاوضات الصلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين ويميلون إليه، فهذا الحليس بن علقمة عندما رأى المسلمين يلبون، رجع إلى أصحابه قال: لقد رأيت البدن قد قلّدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت.

٦ ـ مكّن صلح الحديبية النبي ﷺ من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوة جديدة لنقل الدعوة الإسلامية بأسلوب آخر خارج الجزيرة العربية.

٧ ـ ساعد صلح الحديبية النبي ﷺ على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس والروم والقبط يدعوهم إلى الإسلام.

٨ ـ كان صلح الحديبية سبباً ومقدمة لفتح مكة، يقول ابن القيم: كانت الهدنة مقدمة بين يدي الفتح الأعظم، الذي أعزّ الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهدنة باباً له ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه، وهذه عادة الله في الأمور العظام التي يقضيها قدراً وشرعاً، أن يوطىء بين يديها بمقدّمات وتوطئات تؤذن لها وتدل عليها [٢].

سادساً: أبو بصير في المدينة وقيادته لحرب العصابات:

في أعقاب صلح الحديبية مباشرة استطاع أبو بصير عتبة بن أسيد أن يفرّ بدينه من سجون الشرك في مكة المكرمة، وأن يلتحق برسول الله ﷺ في المدينة، فبعثت قريش في إثره اثنين من رجالها إلى رسول الله ليرجعا به، تنفيذاً لشروط المعاهدة، فقال رسول الله ﷺ لأبي بصير: يا أبا بصير، «إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك»، فقال أبو بصير: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ قال: «يا أبا بصير انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً» [٣] فانطلق معهما، وقد شقّ ذلك على المسلمين وهم ينظرون إلى أخيهم في العقيدة وهو يعود إلى سجنه بمكة بعد أن استطاع أن يفلت من ظلم قريش، ولكن رسول الله ﷺ كان يهتم بالوفاء بالعهود والمواثيق، ولم يكن عنده مجرد نظرية مكتوبة على الورق، ولكنه كان سلوكاً عملياً في حياته وفي علاقته الدولية، فقد أوصى الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهود، وحذّر من نقض الأيمان بعد توكيدها في كثير من

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥١، ٣٥٢).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٩).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥٢).

الآيات القرآنية قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

وقال جلّ وعلا: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدة أصولية من قواعد الدين الإسلامي التي يجب على كل مسلم أن يلتزم بها (١).

لقد التزم رسول الله ﷺ بعهده مع قريش، وسلَّم أبا بصير إليهما وانطلق معهما، فلما كانا بذي الحليفة، قال لأحد صاحبيه: أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم، قال: أنظر إليه؟ قال: انظر إن شئت، فاستله أبو بصير، ثم علاه به حتى قتله، ففرّ الآخر إلى رسول الله ﷺ فقال: قتل صاحبكم صاحبي، فما لبث أبو بصير أن حضر، متوشحاً السيف، وقال: يا رسول الله وفت ذمتك، وأدّى الله عنك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه، أو يعبث بي (٢) فقال النبي ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ، مِسْعَرَ حَرْبٍ، لو كان له أحد» (٣) فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده عليهما، فخرج حتى أتى سيف البحر (٤)، وقد فهم المستضعفون بمكة من عبارة الرسول ﷺ أن أبا بصير بحاجة إلى الرجال، فأخذوا يفرون من مكة إلى أبي بصير في سيف البحر، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو وغيره، حتى اجتمع عند أبي بصير عصبة قوية، فما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا طريقها وقتلوا من فيها، وأخذوا الأموال التي كانوا يتجرون بها، فأرسل المشركون إلى النبي ﷺ يناشدونه بالله والرحم، لما أرسل إلى أبي بصير ومن معه، ومن أتاه منهم فهو آمن، وتخلوا في ذلك عن أقسى شروطهم التي صبّوا فيها كؤوس كبريائهم، فذلّت قريش من حيث طلبت العز (٥).

فأرسل إليهم النبي ﷺ (٦) وهم بناحية العيص، فقدموا عليه، وكانوا قريباً من الستين أو السبعين (٧)، فآوى النبي ﷺ تلك العصبة المؤمنة التي أقضت مضاجع قريش، وأرغمتها على إسقاط شرطها التعسفي، فزادت بهم قوة المسلمين، وقويت بهم شوكتهم واشتدّ بأسهم.

غير أن أبا بصير، رأس تلك العصابة ومؤسسها، لم يقدر له أن يكون معها، فقد وافاه كتاب النبي ﷺ بالعودة إلى المدينة، وهو على فراش الموت، فلفظ أنفاسه حيث كان في الثغر،

---

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية، (ص ٣٢٩).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥٣).
(٣) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٤١) رقم (٤٧٣٢).
(٤) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٤١) رقم (٤٧٣٢).
(٥) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٤/ ٢٨١).
(٦) البخاري، كتاب الشروط (٣/ ٢٤١) رقم (٤٧٣٢).
(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٥١).

وهواه في قلب المجتمع النبوي في المدينة [١].

إن قصة أبي جندل وأبو بصير، وما احتملاه في سبيل العقيدة، وما أبدياه من الثبات والإخلاص والعزيمة والجهاد، حتى مرغوا رؤوس المشركين بالتراب، وجعلوهم يتوسلون بالمسلمين لترك ما اشترطوه عليهم في الحديبية، هذه القصة نموذج يقتدى به في الثبات على العقيدة وبذل الجهد في نصرتها، وفيها ما يشير إلى مبدأ (قد يسع الفرد ما لا يسع الجماعة) فقد ألحق أبو بصير وجماعته الضرر بالمشركين، في وقت كانت فيه دولة الإسلام لا تستطيع ذلك وفاءً بالصلح، لكن أبا بصير وأصحابه خارج سلطة الدولة ـ ولو في ظاهر الحال ـ ولم يكن ما قام به أبو بصير والمستضعفون بمكة مجرد اجتهاد فردي لم يحظ بإقرار الرسول ﷺ أن يأمر أبا بصير بالكف عن قوافل المشركين ابتداء أو بالعودة إلى مكة، لكن ذلك لم يحدث، فكان إقراراً له، إذ كان موقف أبي بصير وأصحابه في غاية الحكمة حيث لم يستكينوا لطغاة مكة يفتنونهم عن دينهم، ويمنعونهم من اللحاق بالمدينة، فاختاروا موقفاً فيه خلاصهم، وإسناد دولتهم بأعمال تضعف اقتصاد مكة وتزعزع إحساسها بالأمن في وقت الصلح، بل يمكن القول بأن اتخاذ هذا الموقف كان بإشارة وتشجيع من النبي ﷺ حين وصف أبا بصير [٢] بأنه «مِسْعَرَ حَرْبٍ لو كان معه أحد» [٣].

سابعاً: امتناع النبي ﷺ عن ردّ المهاجرات:

صممت مجموعة من النساء المستضعفات في مكة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي مقدمة هؤلاء النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فقد هاجرت إلى رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية، فأراد كفار مكة أن يردوهن، فأنزل الله تعالى في حقهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠].

قال الشيخ محمد الغزالي، (وقد أبى المسلمون عقب صلح الحديبية أن يردوا النسوة المهاجرات بدينهن إلى أوليائهن، أما لأنهم فهموا أن المعاهدة خاصة بالرجال فحسب، أو لأنهم خشوا على النساء اللاتي أسلمن أن يضعفن أمام التعذيب والإهانة، وهن لا يستطعن ضرباً في الأرض، ورداً للكيد، كما فعل أبو جندل وأبو وبصير وأضرابهما، وأياً كان الإمر فإن احتجاز من

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ٢٩٦).
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٥٢).
(٣) البخاري، كتاب الشروط (٣/ ٢٤١) رقم (٤٧٣٢).

أسلم من النساء تمّ بتعليم القرآن) [١].

المبحث الثالث

دروس وعِبَر وفوائد

كانت غزوة الحديبية غنية بالدروس العقائدية والفقهية، والأصولية والتربوية... إلخ وسوف أذكر منها بعض الدروس على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: أحكام تتعلق بالعقيدة:

١ ـ حكم القيام على رأس الكبير وهو جالس:

في قيام المغيرة بن شعبة على رأس النبي ﷺ بالسيف، ولم يكن من عادته أن يقام على رأسه وهو قاعد، سنة يُقتدى بها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفخر، وتعظيم الإمام وطاعته ووقايته بالنفوس، وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين، وليس هذا من النوع الذي ذمّه النبي ﷺ بقوله: «من أحب أن يمثل له الرجل قياماً فليتبوأ مقعده من النار» [٢].

كما أن الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره [٣]. ويشبه هذا ما فعله أبو دجانة في غزوة أحد، فكل ما يدل على التكبر أو التجبر في المشي ممنوع شرعاً، ولكنه جائز في حالة الحرب بخصوصها، بدليل قوله ﷺ عن مشية أبي دجانة: «إنها مشية يكرهها الله إلا في هذا الموضع» [٤].

٢ ـ استحباب الفأل وأنه مغاير للطيرة:

لما جاء سهيل بن عمرو لمفاوضة رسول الله ﷺ قال رسول الله: «سهل أمركم» [٥] ففي الحديث استحباب التفاؤل وأنه ليس من الطيرة المكروهة [٦].

وقد جاءت أحاديث عن النبي ﷺ تبيّن معنى الفأل، قال رسول الله ﷺ: «لا طيرة وخيرها الفأل» [٧]، قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها

---

(١) انظر: فقه السيرة للغزالي، (ص ٣٦٧).
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب باب قيام الرجل للرجل (٥٢٢٩).
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٤).
(٤) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٢٤١).
(٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٥).
(٦) المصدر نفسه، (٣/ ٣٠٥).
(٧) انظر: غزوة الحديبية للحكمي (ص ٣٠٣).

أحدكم [١]»، والفرق بين الفأل والطيرة: أن الفأل من طريق حسن الظن بالله والطيرة لا تكون إلا في السوء فلذلك كرهت [٢].

وقد ذكرت الطيرة عند النبي ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك [٣]».

٣ ـ بيان كفر من اعتقد أن للكوكب تأثيراً في إيجاد المطر:

قال خالد الجهني رضي الله عنه: صلّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية ـ على إثر سماء [٤] كانت من الليلة ـ فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء [٥] كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب» [٦].

وقد حمل العلماء الكفر المذكور في الحديث على أحد نوعيه الاعتقادي أو كفر النعمة بحسب حال القائل.

فمن قال: مطرنا بنوء كذا معتقداً أن للكوكب فاعلية وتأثيراً في إيجاد المطر... فهو كافر كفراً مخرجاً من الملة، قال الشافعي: من قال مطرنا بنوء كذا وكذا على ما كان أهل الجاهلية يعنون من إضافة المطر إلى أنه بنوء كذا، فذلك كفر كما قال رسول الله ﷺ لأن النوء وقت، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ومن قال: مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا في وقت كذا فلا يكون كفراً وغيره من الكلام أحب إليَّ منه [٧].

فالشافعي يقصد هنا الكفر الاعتقادي [٨].

٤ ـ هل يجوز التبرك بفضلات الصالحين وآثارهم:

ففي حديث عروة بن مسعود وهو يصف أصحاب رسول الله ﷺ حوله قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه [٩].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الطب (٥٧٥٤).
(٢) فتح الباري (١٠/ ٢١٥).
(٣) سنن أبي وداود مع معالم السنن/ كتاب الطب (٣٩١٩).
(٤) إثر سماء: المقصود المطر.
(٥) الأنواء، ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة في منزلة.
(٦) البخاري، كتاب الأذان (٨٤٦).
(٧) الأم (١/ ٢٥٢).
(٨) انظر: غزوة الحديبية للحكمي (ص ٣٠٤).
(٩) البخاري، كتاب الشروط (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

وقد علق الشاطبي على هذا الحديث وأحاديث أخرى تماثله فقال: فالظاهر في مثل هذا النوع أن يكون مشروعاً في حق من ثبت ولايته، واتباعه لسنّة رسول الله ﷺ، وأن يتبرك بفضل وضوئه، ويتدلك بنخامته ويستشفي بآثاره كلها، ويرجى نحو مما كان في آثار المتبوع الأصل [١] ﷺ، إلا أنه عارضنا في ذلك أصل مقطوع به في متنه مشكل في تنزيله، وهو أن الصحابة ﷺ بعد موته عليه السلام لم يقع من أحد منهم في شيء من ذلك، بالنسبة إلى من خلفه، إذ لم يترك النبي ﷺ بعد موته أفضل من أبي بكر الصديق ﷺ فهو كان خليفته ولم يفعل به شيء من ذلك، ولا عمر ﷺ، وهو كان أفضل الأمة بعده، ثم كذلك عثمان، ثم علي، ثم سائر الصحابة الذين لا أحد أفضل منهم في الأمة، ثم لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أن متبركاً تبرك به على أحد تلك الوجوه أو نحوها، بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال والأقوال والسير التي اتبعوا فيها النبي ﷺ، فهو إذاً إجماع منهم على ترك تلك الأشياء [٢].

وقد أخرج ابن وهب في جامعه من حديث يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال: حدّثني رجل [٣] من الأنصار أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أو تنخم ابتدر من حوله من المسلمين وضوءه ونخامته فشربوه ومسحوا به جلودهم، فلما رآهم يصنعون ذلك سألهم «لم تفعلوا هذا؟» قالوا: نلتمس الطهور والبركة بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «من كان منكم يحب أن يحبه الله ورسوله فليصدق الحديث وليؤد الأمانة ولا يؤذ جاره» [٤].

وهذا الحديث أفاد أن الأولى ترك التبرك مع رسول الله ﷺ، ولعل سكوت النبي ﷺ عن ذلك يوم الحديبية ليرى عروة بن مسعود رسول قريش مدى تعلق الصحابة رضوان الله عليهم بالنبي ﷺ وحبهم له، لا سيما وقد قال للنبي ﷺ: وإني لأرى أوشاباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك [٥]. هذه بعض المسائل العقائدية.

ثانياً: أحكام فقهية وأصولية:

١ ـ قصة كعب بن عجرة ونزول آية الفدية:

قال كعب بن عجرة ﷺ: وقف عليّ رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت [٦] قملاً

---

(١) قال محقق كتاب الاعتصام: يظهر أن الجملة محرفة.

(٢) انظر: غزوة الحديبية للحكمي (ص ٣٠٥).

(٣) هو عبد الرحمن بن أبي قرد ﷺ، الترغيب والترهيب (٣/ ٥٨٩).

(٤) هذا الحديث قال عنه الألباني: هو حديث ثابت له طرق وشواهد في معجمي الطبراني وغيرها، السلسلة الصحيحة رقم (٢٩٩٨).

(٥) البخاري، كتاب الشروط رقم (٢٧٣٢).

(٦) يتهافت: يتساقط. النهاية (٥/ ٢٦٦).

فقال: «أيؤذيك هوامك [١]؟» قلت: نعم. قال: «فاحلق رأسك». أو قال: «احلق» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] فقال النبي ﷺ: «صم ثلاثة أيام، أو تصدّق بفرق بين ستة، أو انسك [٢] بما تيسر [٣]». وفي رواية مسلم: أن النبي ﷺ مرّ به وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة وهو محرم، وهو يوقد تحت قدر، والقمل يتهافت على وجهه قال: «أيؤذيك هوامك هذا؟» قال: نعم. قال: «فاحلق رأسك وأطعم فرقاً بين ستة مساكين (والفرق ثلاث أصع) أو صم ثلاثة أيام أو انسك نسيكة [٤]»، وآية البقرة المذكورة تبيّن حكم من كان محرماً وبه أذى من رأسه، وهي نزلت في كعب بن عجرة خاصة وأصبح لكل مسلم يمر بنفس الحالة.

٢ ـ مشروعية الصلاة في الرحال:

روى ابن ماجة عن أبي المليح بن أسامة قال: خرجت إلى المسجد في ليلة مطيرة تماماً، فلما رجعت استفتحت فقال أبي [٥]: من هذا؟ قال: أبو المليح. قال: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية وأصابتنا سماء لم تبل أسافل نعالنا، فنادى منادي رسول الله ﷺ صلوا في رحالكم [٦]، وهذا الحديث صحيح، فسنده متصل برواية الثقات وقد صححه ابن حجر [٧].

٣ ـ انصراف المسلمين من الحديبية ونومهم عن صلاة الصبح:

كانت مدة إقامة المسلمين بالحديبية بضعة عشر يوماً، ويقال: عشرين ليلة على قول الواقدي [٨] وابن سعد [٩].

وعن ابن عائذ: أن رسول الله ﷺ أقام في غزوته هذه شهراً ونصفاً [١٠].

والذي يبدو: أن الواقدي وابن سعد أرادا تحديد مدة إقامته ﷺ في الحديبية، أما ابن عائذ فقصد الزمن الذي استغرقته غيبة النبي ﷺ منذ خروجه من المدينة إلى عودته إليها.

وبعد أن تحلل المسلمون من عمرتهم تلك قفلوا راجعين إلى المدينة، فلما كان من الليل

---

(١) الهوام: جمع هامة وهي ما يدب من الأخشاش والمراد القمل.
(٢) انسك: اذبح. النهاية (٥/ ٤٨).
(٣) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب المحصر: (١٨١٥).
(٤) مسلم، كتاب الحج (١٢٠١).
(٥) أسامة بن عمير الهذلي البصري صحابي تفرد ولده عنه.
(٦) سنن ابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة (٩٣٦).
(٧) فتح الباري (٢/ ١١٣)، غزوة الحديبية للحكمي (ص ٢٢١).
(٨) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٦١٦).
(٩) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٩٨).
(١٠) انظر: شرح الزرقاني على المواهب (٢/ ٢١٠).

عدلوا عن الطريق للنوم ووكلوا بلالاً بحراستهم، فنام بلال ولم يوقظهم إلا حر الشمس [١]، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ حيث قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ زمن الحديبية فقال رسول الله ﷺ: «من يكلؤنا؟» [٢] فقال بلال: أنا. فناموا حتى طلعت الشمس واستيقظ النبي ﷺ فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون» قال: ففعلنا. قال: «فكذلك فافعلوا لمن نام أو نسي» [٣]. وقد وردت أحاديث أخرى تفيد أن قصة نومهم عن صلاة الصبح وقعت في غير الحديبية وحاول بعض العلماء التوفيق بين هذه النصوص، وذهب الدكتور حافظ الحكمي إلى أن ما ورد من اختلاف بين حديث عبد الله بن مسعود في قصة الحديبية وغيره محمول على تعدد القصة، كما رجح ذلك النووي [٤]، وجنح إليه ابن كثير [٥] وابن حجر [٦]، والزرقاني بل قال السيوطي: لا يجمع إلا بتعدد القصة [٧].

٤ ـ مشروعية الهدنة بين المسلمين وأعدائهم، ومقدار المدة التي تجوز المهادنة عليها:

استدلّ العلماء والأئمة بصلح الحديبية على جواز عقد هدنة بين المسلمين وأهل الحرب من أعدائهم إلى مدة معلومة، سواء أكان ذلك بعوض يأخذونه منهم أم بغير عوض، أما بدون عوض فلأن هدنة المدينة كانت كذلك، وأما بعوض فبقياس الأولى لأنها إذا جازت بدون عوض، فلأن تجوز بعوض أقرب وأوجه.

وأما إذا كانت المصالحة على ما يبذله المسلمون، فهو غير جائز عند جمهور المسلمين، لما فيه من الصغار لهم، ولأنه لم يثبت دليل من الكتاب والسنّة على جواز ذلك، قالوا: إلا إن دعت إليه ضرورة لا محيص عنها، وهو أن يخاف المسلمون الهلاك أو الأسر فيجوز، كما يجوز للأسير فداء نفسه بالمال.

وقد ذهب الشافعي وأحمد رحمهما الله، وكثير من الأئمة إلى أن الصلح لا ينبغي أن يكون إلا إلى مدة معلومة، وأنه لا يجوز أن تزيد المدة على عشر سنوات مهما طالت، لأنها هي المدة التي صالح النبي ﷺ قريشاً عليها عام الحديبية [٨].

---

(١) انظر: غزوة الحديبية (ص ٢٥١).
(٢) يكلؤنا: يحرسنا.
(٣) انظر: سنن أبي داود مع معالم السنن، كتاب الصلاة (٤٤٧).
(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٨١، ١٨٢)؛ غزوة الحديبية، (ص ٢٥٨).
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢١٣).
(٦) فتح الباري (١/ ٤٤٩)؛ شرح الزرقاني على الموطأ (١/ ٤٧).
(٧) انظر: تنوير الحوالك (١/ ٣٣).
(٨) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٢٤٢).

وذهب آخرون إلى جواز الهدنة أكثر من عشر سنين على ما يراه الإمام من المصلحة وهو قول أبي حنيفة [١].

والتحقيق: أن القول الأول هو الراجح لظاهر الحديث، وإن وجدت مصلحة في الزيادة على العشر جدد العقد، كما قال الشافعي [٢].

وقال بعض المتأخرين [٣]: يجوز عقد صلح مؤبد غير مؤقت بمدة معينة واستدل بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

وهذا قول مبني على أن الأصل في علاقة المسلمين بالكفار هي السلم لا الحرب [٤]، وأن الجهاد إنما شرع لمجرد الدفاع عن المسلمين فحسب [٥].

وهذا القول مردود لما يلي:

أ - أن صاحب هذا القول قد خرق الاتفاق بعد أن حكاه بنفسه حيث قال: اتفق الفقهاء على أن عقد الصلح مع العدو لا بدّ من أن يكون مقدوراً بمدة معينة، فلا تصح المهادنة مطلقة إلى الأبد من غير تقدير بمدة [٦].

ب - الآية التي استدل بها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]. فقد نقل ذلك ابن جرير [٧] عن عكرمة والحسن وقتادة وابن زيد، وحكاه القرطبي [٨] عن مجاهد. ثم قال: وهو أصح شيء في معنى الآية.

ج - الأصل الذي انبنى عليه هذا القول مردود بآية براءة السابقة وبواقع سيرة الرسول ﷺ، وخلفائه مع أعدائهم.

---

(١) انظر: فتح القدير (٥/٥٤٦)، غزوة الحديبية (ص ٢٩٤).
(٢) انظر: غزوة الحديبية (ص ٢٩٥).
(٣) آثار الحرب في الفقه الإسلامي الدكتور وهبة الزحيلي (ص ٦٨٠).
(٤) انظر: آثارالحرب في الفقه الإسلامي للزحيلي (ص ٦٧٥).
(٥) المصدر السابق، (ص ٦٧٥).
(٦) المصدر السابق، (ص ٦٧٥).
(٧) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢٤ - ٢٦).
(٨) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٣٠٨).

د ـ أما فكرة أن الجهاد إنما شرع للدفاع عن المسلمين، فهي فكرة دخيلة وقد تصدّى لها سيد قطب رحمه الله [١] ففندها، وبيّن أن سبب نشوئها هو الانهزام أمام هجمات المستشرقين، وعدم الفهم لمرحلية الدعوة [٢].

٥ ـ المطلق يجري على إطلاقه:

هذه قاعدة أصولية يؤيدها ما رواه ابن هشام عن أبي عبيد أنه قال: إن بعض من كان مع رسول الله ﷺ، قال له لما قدم المدينة: ألم تقل يا رسول الله إنك تدخل مكة آمناً؟ قال: بلى، أفقلت لكم من عامي هذا؟ قالوا: لا، قال: فهو كما قال لي جبريل ـ عليه السلام ـ [٣] وفي هذا الأثر، تبشير المؤمنين بفتح مكة، في المستقبل، وإيماء بالوحي الصادق إلى ذلك النصر، ولفت لهم إلى وجوب التسليم لأمره، بإطلاق، كلما ورد مطلقاً، دون تحميله زيادات وقيوداً تصرفه عن إطلاقه [٤].

٦ ـ وجوب طاعته ﷺ والانقياد لأمره، وإن خالف ظاهر ذلك القياس أو كرهته النفوس:

جاء في قصة الحديبية أن عمر بن الخطاب وبعض الصحابة رضي الله عنهم كرهوا الصلح مع قريش [٥]، لما رأوا في شروطها من الظلم والإجحاف في حقهم، لكنهم ندموا بعد ذلك على صنيعهم، ورأوا أنهم وقعوا في حرج، إذ كيف يكرهون شيئاً رضيه رسول الله ﷺ، وظلت تلك الحادثة درساً لهم فيما استقبلوا من حياتهم، وكانوا يحذرون غيرهم من الوقوع فيما وقعوا فيه من الاعتماد على الرأي [٦]، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «أيها الناس اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ برأيٍ اجتهاداً فوالله ما آلو عن الحق وذلك يوم أبي جندل [٧].

وكان سهل بن حنيف رضي الله عنه يقول: اتهموا رأيكم، رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته [٨].

ولقد بقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه برهة من الزمن متخوفاً أن ينزل الله به عقاباً للذي صنع يوم الحديبية.

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٣٣) وما بعدها.
(٢) انظر: غزوة الحديبية للحكمي (ص ٢٩٦).
(٣) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٢٩٧).
(٤) انظر: غزوة الحديبية للحكمي (ص ٣١٣).
(٥) المصدر السابق، (ص ٣١٣).
(٦) المصدر نفسه، (ص ٣١٣).
(٧) المصدر نفسه، (ص ١٧٩).
(٨) المصدر نفسه، (ص ٣١٣).

فكان ﷺ يتحدث عن قصته تلك ويقول: فما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذٍ حتى رجوت أن يكون خيراً [١].

قال ابن الديبع الشيباني تعليقاً على هذه الحادثة: قال العلماء: لا يخفى ما في هذه القصة من وجوب طاعته ﷺ والانقياد لأمره، وإن خالف ظاهر ذلك مقتضى القياس أو كرهته النفوس، فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن الخير فيما أمر به، وأنه عين الصلاح المتضمن لسعادة الدنيا والآخرة، وأنه جاء على أتم الوجوه وأكملها غير أن أكثر العقول قصرت عن إدراك غايته وعاقبة أمره [٢].

ثالثاً: أنموذج من التربية النبوية:

في قول رسول الله ﷺ: «من يصعد الثنية ثنية المرار، فإنه يحط عنه ما حطّ عن بني إسرائيل» [٣].

يظهر في هذا الحديث جانب عظيم من جوانب التربية النبوية يستحق التأمل والتدبّر، فرسول الله ﷺ يشجع أصحابه على صعود الثنية، ثم يخبرهم أن الذي يجتازها سينال مغفرة من الله تعالى، وحين نتأمل هذا الحديث تبرز لنا معان عظيمة منها:

١ ـ أن رسول الله ﷺ يريد أن يربط قلوب أصحابه باليوم الآخر في كل لحظة من لحظات حياتهم.

٢ ـ أنه يريد لفت أنظارهم إلى أن كل حركة يتحركونها، وكل عمل يقومون به ـ حتى ما يرون أنه من العادات أو من دواعي الغريزة ـ يجب استغلاله للتزود لذلك اليوم، وكان ﷺ يسعى دائماً لترسيخ تلك المعاني في نفوس الصحابة، فنزاه يقول في موطن آخر: «وفي بضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» [٤].

ويقول في موطن ثالث: «وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة التي ترفعها إلى فيّ امرأتك» [٥].

إن تلك المعاني ـ إذا تمكنت في قلب المسلم ـ لكفيلة بأن تصبغ حياته كلها بصبغة العبودية للّه وحده، وإذا شملت العبادة كل نواحي حياة المسلم، فإن لهذا الشمول آثاراً مباركة

---

(١) انظر: حدائق الأنوار ومطالع الأسوار (٢/ ٦٢٢).
(٢) انظر: مرويات غزوة الحديبية (ص ٣١٥).
(٣) مسلم، كتاب صفات المنافقين (رقم ٢٧٨٠).
(٤) مسلم، كتاب الزكاة (٥٣).
(٥) البخاري، مع الفتح، كتاب الوصايا (٢٧٤٢).

سوف يشعر بها الفرد في نفسه ثم يلمسها فيمن حوله [١].

ومن أبرز تلك الآثار أمران:

أ - أن يصبغ حياة المسلم وأعماله بالصبغة الربانية، ويجعله مشدوداً إلى الله في كل ما يؤديه، فهو يقوم به بنية العابد الخاشع، وروح القانت المخبت، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كل عمل نافع وكل إنتاج صالح، وكل ما ييسر له ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة، على أمثل وجوهها، فإن ذلك يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله تعالى، كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدنيوي وتجويده وإتقانه، ما دام يقدمه إلى ربه سبحانه ابتغاء رضوانه وحسن مثوبته.

ب - أنه يمنح المسلم وحدة الوجهة ووحدة الغاية في حياته كلها، فهو يرضى رباً واحداً في كل ما يأتي ويدع، ويتجه إلى هذا الرب بسعيه كله الديني والدنيوي، لا انقسام ولا صراع، ولا ازدواج في شخصيته ولا في حياته [٢].

ولقد عاش الصحابة الكرام تلك المعاني وحولوها إلى حقائق ملموسة في حياتهم كلها، وما حفظ الله سيرتهم إلا لكي نقتدي بهم في حياتنا، وتكون حجة على كل من جاء بعدهم [٣].

(١) انظر: مرويات غزوة الحديبية للحكمي (ص ٣١٥).

(٢) انظر: العبادة في الإسلام للقرضاوي (ص ٦٦).

(٣) انظر: مرويات غزوة الحديبية للحكمي (ص ٣١٦) لقد استفدت في فصل غزوة الحديبية استفادة كبيرة من كتاب مرويات غزوة الحديبية، للحكمي، وصلح الحديبية، باشميل، وغزوة الحديبية لأبي فارس. وكانت هذه الكتب هي العمدة في هذا الفصل كما استفدت من غيرها كمراجع ومصادر.

obeikandl.com